

فكر قبل أن تعمل

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 28 نوفمبر 2021

بقلم: الدكتور زكريا الخنجي

يروى أن أحد الولاة من الزمن القديم كان يتجول ذات يوم في سوق المدينة متنكراً، وأثناء تجواله وقع بصره على حانوت قديم ليس فيه شيء مما يغري بالشراء، فقد كان الحانوت شبه خالٍ، وكان فيه رجل طاعن في السن يجلس بارتخاء على مقعد قديم متهاك، ولم يلفت نظر الوالي سوى بعض اللوحات التي تراكم عليها الغبار، فاقترب الوالي من الرجل المسن وحيّاه، ورد الرجل التحية، وكان يغشاه هدوء غريب، وثقة بالنفس عجيبة.

سأل الوالي الرجل: دخلت السوق لأشتري، فماذا عندك مما يباع؟

أجاب الرجل بهدوء وثقة: أهلاً بك، عندنا أحسن وأثمن بضائع السوق.

قال ذلك من دون أن تبدر منه أية إشارة للمزح أو السخرية، فما كان من

الوالي إلا أن ابتسم ثم قال: هل أنت جاد فيما تقول؟

أجاب الرجل: نعم كل شيء هنا جيد، فبضائعي على الرغم من قدمها إلا

أنها لا تقدر بثمن، أما بضائع السوق فإن لها ثمناً محدداً لا تتعداه.

دهش الوالي وهو يسمع ذلك ويرى هذه الثقة، فصمت برهة وأخذ يقلب بصره في الدكان، ثم قال: ولكني لا أرى في دكانك شيئاً للبيع!

قال الرجل: أنا أبيع الحكمة، وقد بعته منها الكثير، وانتفع بها كل الذين اشتروها، ولم يبق معي سوى لوحيتين.

قال الوالي: وهل تكسب من هذه التجارة؟

قال الرجل وقد ارتسمت على وجهه طيف ابتسامة: نعم يا سيدي، فأنا أربح كثيراً، فلوحاتي عالية الثمن جداً.

تقدم الوالي إلى إحدى اللوحيتين ومسح عنها الغبار، فإذا مكتوب فيها (فكر قبل أن تعمل)، فتأمل الوالي العبارة طويلاً، ثم التفت إلى الرجل، وقال: بكم تبيع هذه اللوحة؟

قال الرجل بهدوء: عشرة آلاف دينار فقط.

ضحك الوالي طويلاً حتى اغرورقت عيناه، وبقي الشيخ ساكناً كأنه لم يقل شيئاً، وظل ينظر إلى اللوحة باعتزاز، فقال الوالي: عشرة آلاف دينار! هل أنت جاد؟

قال الشيخ: ولا نقاش في الثمن.

لم يجد الوالي في إصرار العجوز إلا ما يدعو إلى الضحك والعجب، وخمن في نفسه أن هذا العجوز مختل في عقله، فظل يسايره وأخذ يساومه

على الثمن، إلا أن العجوز كان مصراً على كلمته التي قالها، فما كان من الوالي إلا أن هم أن ينصرف وإن كان يتوقع أن العجوز سيناديه إذا انصرف، ولكنه لاحظ أن العجوز لم يكثرث لانصرافه، وعاد إلى كرسيه المتهالك فجلس عليه بهدوء.

وفيما كان الوالي يتجول في السوق، أخذ يفكر في تلك الحكمة (فكر قبل أن تعمل)، وهل تستحق فعلاً كل هذا الثمن الذي طلبه العجوز؟ ثم فكر فتذكر أن هناك أشياء كثيرة أفسدت عليه حياته فلو أنه فكر فيها قبل أن يقوم بها لكان خيراً له. لذلك قرر أن يقتني تلك اللوحة، فوجد نفسه يهرول باحثاً عن دكان العجوز في لهفة، ولما وقف عليه قال: لقد قررت أن أشتري هذه اللوحة بالثمن الذي تحدده.

لم يبتسم العجوز وإنما نهض عن كرسيه بكل هدوء، وأمسك بخرقة ونفض بقية الغبار عن اللوحة، ثم ناولها الوالي، وتسلم المبلغ كاملاً، وقبل أن ينصرف الوالي قال له الشيخ: بعتك هذه اللوحة بشرط.

قال الوالي: وما الشرط؟

قال العجوز: أن تكتب هذه الحكمة على باب بيتك، وعلى كل الأماكن في البيت، وحتى على أدواتك التي تحتاج إليها عند الضرورة، وحتى على ملابسك وفي كل مكان.

فكر الوالي قليلاً ثم قال: موافق.

ذهب الوالي إلى قصره، وأمر بكتابة هذه الحكمة (فكر قبل أن تعمل) في أماكن كثيرة في القصر حتى على بعض ملابسه وملابس نسائه وكثير من أدواته.

ومرت السنون، وحدث ذات يوم أن قرر قائد الجند أن يقتل الوالي لينفرد بالحكم، واتفق مع حلاق الوالي الخاص، وأغراه بالمال والمنصب حتى وافق أن يكون في صفه، وفي دقائق سيتم ذبح الوالي. ولما توجه الحلاق إلى قصر الوالي أدركه الارتباك، إذ كيف سيقتل الوالي، إنها مهمة صعبة وخطيرة، وقد يفشل ويطيير رأسه، ولكن لا بد مما ليس له بد .

ولما وصل إلى باب القصر رأى مكتوباً على البوابة (فكر قبل أن تعمل) وازداد ارتباكاً، وانتفض جسده، وداخله الخوف، ولكنه جمع نفسه ودخل. وفي الممر الطويل، رأى العبارة ذاتها تتكرر عدة مرات هنا وهناك (فكر قبل أن تعمل)، وكأنه يراها أول مرة.

وحتى حين قرر أن يطأ رأسه، فلا ينظر إلا إلى الأرض، رأى على البساط العبارة نفسها تخرق عينيه، وزاد اضطراباً وقلقاً وخوفاً، فأسرع يمد خطواته ليدخل إلى الحجرة الكبيرة، وهناك رأى العبارة نفسها تقابله وجهاً لوجه، فانتفض جسده من جديد، وشعر بأن العبارة ترن في أذنيه بقوة لها صدى شديد .

وعندما دخل الوالي هاله أن يرى أن الثوب الذي يلبسه الوالي مكتوب عليه (فكر قبل أن تعمل)، فشعر بأنه هو المقصود بهذه العبارة، بل داخله شعور أن الوالي ربما يعرف ما خطط له.

وحين أتى الخادم بصندوق الحلاقة الخاص بالوالي، أفزعه أن يقرأ على الصندوق العبارة نفسها، فاضطربت يده وهو يفتح الصندوق، وأخذ جبينه يتصبب عرقاً، وبطرف عينه نظر إلى الوالي الجالس فرآه مبتسماً هادئاً، مما زاد في اضطرابه وقلقه.

فلما هم بوضع الرغوة لاحظ الوالي ارتعاش يده، فأخذ يراقبه بحذر شديد، وتوجس، وأراد الحلاق أن يتفادى نظرات الوالي إليه، فصرف نظره إلى الحائط، فرأى اللوحة منتصبة أمامه (فكر قبل أن تعمل).

فوجد نفسه يسقط منهراً بين يدي الوالي وهو يبكي منتحباً، وشرح للوالي تفاصيل المؤامرة، وذكر له أثر هذه الحكمة التي كان يراها في كل مكان، ما جعله يعترف بما كان سيقوم به.

ونفض الوالي وأمر بالقبض على قائد الحرس وأعوانه، وعفا عن الحلاق، ووقف الوالي أمام تلك اللوحة يمسح عنها ما تراكم عليها من غبار، ونظر إليها بزهو، وفرح وانشراح، فاشتاق لمكافأة ذلك العجوز، وشراء حكمة أخرى منه. لكنه حينما ذهب إلى السوق وجد الدكان مغلقاً، فعلم أن العجوز قد مات.

(فكر قبل أن تعمل) وهذه الجملة أو هذه الحكاية ذكرتني بحكاية أخرى جميلة بعنوان (فقط دقيقة)، والتي تعني أنه في كل أمر نريد أن نتخذ فيه قراراً، وعندما نصل إلى لحظة اتخاذ القرار يجب - وأقصد يجب وليس يستحسن أو أي كلمة مخففة أخرى، وإنما يجب - أن نعطي لأنفسنا فترة دقيقة إضافية لنفكر فيما نريد أن نفعل، إنها ستين ثانية فقط .

ولكن في هذه الدقيقة علينا أن نتجرد عن أنفسنا، وأن نُفرغ أدمغتنا من كل ما نفكر فيه، وأن نعيد التفكير في الموضوع الذي نفكر فيه ونعالجه بكل موضوعية ومنهجية، ومن دون تحيز، فمثلاً: إن كنا قد قررنا أننا أصحاب حق، وأن الآخر قد ظلمنا، فخلال هذه الدقيقة، وعندما نتجرد عن أنفسنا ربما نكتشف أن الطرف الآخر لديه حق أيضاً، أو جزء منه، وعندها قد نغير قرارنا تجاهه. وإن كنا نوبينا أن نعاقب شخصاً ما فإننا خلال هذه الدقيقة بإمكاننا أن نجد له عذراً، فنخفف عنه العقوبة، أو نمتنع عن معاقبته وأن نسامحه نهائياً. فدقيقة واحدة بإمكانها أن تجعلنا نعدل عن اتخاذ خطوة مصيرية في حياتنا، لطالما اعتقدنا أنها هي الخطوة السليمة، في حين أنها قد تكون كارثية. دقيقة واحدة ربما تجعلنا أكثر تمسكاً بإنسانيتنا وأكثر بُعداً عن الهوى. دقيقة واحدة قد تغير مجرى حياتنا وحياة غيرنا، وإن كنت من المسؤولين فإنها قد تغير مجرى حياة قوم بأكملهم.

هذه الحكايات ليست من وحي خيالي أو حتى من تأليفي، ولا أعرف إن كانت حقيقية أو من وحي خيال مؤلف أو من هو المؤلف، ولكنها في كل الأحوال إنها نتحدث عن أمر مهم، وهو التفكير ولو دقيقة واحدة قبل الإقدام على تنفيذ الفكرة، أياً ما كانت هذه الفكرة.

وهذا ما أحاول دائماً أن أعلمه أولادي وحتى تلاميذي والذين أقوم بتدريبتهم بصورة مستمرة في كثير من الأمور، ودائماً أقول للجميع خذ ورقة وقلم وأكتب فكرتك، ثم أكتب فكرتك عشرات المرات وأبحث فيها عن ثغرات وهفوات، فمن طبيعة الإنسان أنه يندفع عندما تصل إلى ذهنه فكرة ويريد تطبيقها وتنفيذها، فنرى أنفسنا نستعجل ونقوم بالتنفيذ بأسرع ما يمكن، وبعد ذلك نفاجاً أنها فكرة ناقصة أو حتى معيبة، عندئذ نحبط وربما نكتئب، فماذا يمكن أن يحدث لو تريتنا في تنفيذ الفكرة قليلاً؟ ماذا لو أخذنا دقيقة واحدة لنفكر فيها قبل أن نقوم بتنفيذها، ترى كيف ستكون النتائج؟

علماً بأن هذه الدقيقة التي ستمنحها لنفسك قبل إصدار أي قرار قد تغير الكثير من الأمور، فهل نفكر قبل أن نعمل؟